شخصية رسول الله ﷺ وأخلاقه

بعد أن قمنا بعرض مختصر للأحداث البارزة في حياة النبيّ الأكرم ﷺ، نقدّم الآن محاولة لعرض الخطوط العامة للملامح التي تميّز سلوكه الخلقي. ولدينا في هذا الشأن شهادة قومه التي أقروا بها قبل دعواه بالنبوة، ففي تلك المرحلة كان معروفًا في قومه "بالصادق" و "الأمين". (ابن هشام)

ولا شك أن في كل عصر عاشت أعداد كبيرة من الناس دون أن يتّهمهم أحد بعدم الأمانة، وهناك أيضًا أعداد كبيرة من البشر لم يحدث لهم أن تعرّضوا للتجربة والامتحان، وكان سلوكهم في مجالاتهم العادية يتّسم بالأمانة والنّزاهة، ولكن لا يعتبر الناس أنهم يتميّزون بشيء خاص في هذا الصدد، إذ أن من يستحق أن ينال التميّز الخاص هم أولئك الذين تفيض حياتهم الشخصية بدرجة عالية من صفات الخلق السامي الكريم.

إن كل جندي يدخل المعركة يضع حياته في مهب الأخطار، ولكن ليس كل جندي بريطاني ينال وسام الملكة فيكتوريا، ولا يستحق كل جندي ألماني وسام الصليب الحديدي. وهناك مئات الألوف من الناس في فرنسا يعملون في وظائف تستدعي منهم استعمال العقل والتفكير، ولكن لا يفوز كل منهم بوسام الشرف. وعلى هذا فإن مجرد أن يكون الإنسان أمينًا أو صادقًا لا يدل على أنه يتميّز بشيء خاص عن سائر الناس، ولكن عندما يقوم شعب بأكمله بالإجماع على منح

شخص لقب "الصادق" و "الأمين"، فإن هذا يدل على أنه بلغ في الأمانة والصدق مبلغًا عظيمًا، وأن له في الصدق والأمانة خواصًا استثنائية خارقة عهدها الناس عليه. ولو كان من عادة أهل مكة أن يمنحوا تميّزًا كهذا لشخص ما في كل جيل من الأجيال، فحتى حينذاك لا بد أن يكون ذلك الشخص قد بلغ شأنًا عاليًا في خصال الصدق والأمانة. ولكن تاريخ مكة، بل وتاريخ الجزيرة العربية كلها، لا يشير من قريب أو بعيد إلى أن العرب قد اعتادوا منح هذه الألقاب أو ما يشابهها في أيّ جيل من أجيالهم. ولكن على العكس من ذلك، إن تاريخ العرب يبين أنه لم يحدث أنهم أطلقوا لقب "الصادق" أو "الأمين" على أحد سوَى على الرسول ﷺ، مما يدل على أنه ﷺ قد بلغ في هذا الشأن سموًا لم يبلغه أحد، ونال رفعة لم يصل إليها سواه، حتى إن ذاكرة قومه لم تعرف شخصًا يساويه في هذا المضمار، ولا رأت عيونهم إنسانًا يباريه في هذا المجال. لقد كان العرب معروفين بتوقّد الذهن، وإذا ما اختاروا شيئًا واعتبروه نادر المثال، فهو في الحقيقة إذن فريد نادر المثال.

وعندما دعا الله تعالى رسوله الكريم ليحمّله أعباء النبوة ومسئولياتها، فإن زوجه السيدة خديجة، رضي الله تعالى عنها، راحت تشهد بصفاته الخلقية الراقية، وهي حادثة سبق الإشارة إليها في سيرته التي أسلفنا ذكرها. وسوف نقدّم الآن بعضًا من صفاته الأخلاقية العالية، ليستطيع القارئ أن يقدّر رسول الله حق قدره في تلك المجالات التي لم يتمّ التعريف بها.

طهارة الفكر ونظافة البدن

يُروَى عن الرسول ﷺ أنه كان نقيّ الحديث دائمًا، وأنه لم يكن يستعمل القسَم تلو القسَم لتوكيد كلامه، كما كان معاصروه غالبًا يفعلون. ولم يكن هذا بالأمر العادي بين العرب، ولا يعني هذا أن العرب في عصر الرسول ﷺ كانوا يعتادون الكلام البذيء، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا معتادين على الكلام الذي يشوبه الكثير من الأيْمان المغلّظة، وهي عادة تمكنت منهم حتى إلى أيامنا هذه. أما رسول الله فكان يحفظ لاسم الله تعالى وقاره واحترامه، ولم يحدث أبدًا أن تفوّه به إلا إذا كان هناك ما يبرر ذلك.

وكان دقيقًا في اهتمامه بالنظافة البدنية حتى في الشكليات الخارجية، فكان من عادته أن يستاك عدة مرّات في اليوم، وكان يشدّد على الاهتمام بهذه العادة حتى تكرر منه القول بأنه لولا خشيته أن يشق على أمّته لأمرهم بالسواك عند كل صلاة. كان يغسل يديه قبل الطعام وبعده، وكان يغسل فمه فور تناول طعام مطبوخ؛ وكان يرى أنه من المستحب لكل شخص أكل طعامًا مطبوخًا أن يغسل فمه قبل كل صلاة، ففيه استنارة للفم. (البخاري)

إن المسجد في الإسلام هو المكان الذي يُعقد فيه اجتماع المسلمين، ولذلك اهتم الرسول ﷺ اهتمامًا خاصًا بنظافة المساجد، خاصة في الأوقات التي يزدحم المسلمون داخلها، ولذلك حث على إيقاد البخور في هذه المناسبات لتحسين رائحة الهواء (أبو داود). وأرشد المسلمين ألا يذهبوا إلى المساجد في الصلوات الجامعة بعد تناول الأطعمة التي تصدر

عنه رائحة منفّرة (البخاري).

وأصر على أن تظل الشوارع والطرقات نظيفة من الأغصان والحجارة، وكل المواد والأشياء التي قد تعوق السير أو تثير الاشمئزاز. وكان يزيل الأذى من الطريق بنفسه إذا وجده، وكان من عادته التذكير بأن كل من يميط الأذَى عن الطريق محافظًا عليه نظيفًا فإنه يكتسب رفعة عند الله وقوة في الإيمان. ورُوي عنه أنه أمر ألا تُستعمل الطرقات لتعويق المارة، وألا يُلقَى في الطريق أي شيء أو مادة غير مرغوب فيها، وألا يُدنّس الطريق بأية صورة، فإن كل فعل من تلك الإساءات تُغضب الله تعالى.

وكان شديد الحرص على أن تُصان كل مصادر الماء التي يستعملها الإنسان نظيفة نقية. وعلى سبيل المثال هنا، فلقد حرّم إلقاء أي شيء في الماء الراكد حتى لا يفسد، ولا في أي خزّان ماء يُستفاد منه حتى لا يتلوث (البخاري ومسلم-كتاب البِر والصلة).

بساطة حياة النبيّ

كان طعامه وشرابه غاية في البساطة، ولم يشْكُ مطلقًا من سوء طبخ الطعام أو سوء إعداده. وكان يُقْدم على تناول طعام كهذا ليعفي الشخص الذي قام بإعداده من الحرَج، وأحيانًا كان الطعام لا يؤكل وحينئذ يكفّ عن تناوله، ولم يحدث أن عبر أبدًا عن رفضه لطعام. وكان إذا جلس لطعامه اتجه نحوه، وكان يُعلّم أصحابه أن لا يفرّقوا بين أنواع الطعام. وعندما يوضع الطعام أمامه، كان يشترك فيه مع

الحاضرين. وفي مرة أهداه أحدهم تمرًا، فنظر حوله وقدّر عدد أصحابه الذين كانوا معه، ثم قسم التمر بينهم بالتساوي، فأعطى كل واحد منهم سبع تمرات. وقد روَى أبو هريرة أن الرسول ﷺ لم يأكل حتى الشبع من طعام قط حتى ولا من خبز شعير (البخاري).

ومر يومًا على قوم بين أيديهم شاة مشويّة في وليمة، وعندما رأوا الرسول ﷺ دعوه ليشاركهم فأبى، ولم يكن ذلك كراهية منه للّحم المشوي، ولكن لأنه لم يكن يرضَى أن يستمتع الناس بوليمتهم من الشواء في مكان مفتوح للمارة بحيث يراهم الفقير الذي لا يجد ما يأكل، فتنكسر نفسه. ورُوي عنه في مناسبة أخرَى أنه أكل اللحم المشوي. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض" (البخاري- كتاب الأطعمة). وكان يشدّد على ألا يذهب إنسان إلى بيت شخص آخر لطعام إلا إذا دُعي إليه. وفي مرة دعاه إنسان إلى طعام، وأذن له أن يصحب أربعة آخرين معه، وعندما وصل إلى منْزل المضيف وجد شخصًا سادسًا قد انضم إلى المجموعة، وخرج صاحب البيت إلى الباب ليلقَى الرسول ﷺ وصحبه. فلفت ﷺ نظره إلى الشخص السادس الذي انضم إليهم، وترك للمضيف حق قبول هذا الضيف الزائر أو رفضه، وقبل المضيف بطبيعة الحال هذا الشخص الزائر (البخاري كتاب الأطعمة).

وكان إذا جلس ﷺ لطعام سمى بالله ودعا بالبركة، فإذا فرغ حمد الله بهذه الكلمات: "الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه غير مكفي

ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا". والمعنى هو أن كل المحامد لله الذي أطعمنا، حمدًا فائضًا من قلب مخلص محض، حمدًا متزايدًا باستمرار، حمدًا لا يدع لدينا انطباعًا في عقولنا أننا حمدناه تعالى بما يكفي، بل حمدًا يخلق فينا إحساسًا أننا لم نقل بعد ما يكفي لحمد الله، حمدًا لا ينتهي بل يجعلنا نشعر دومًا أن كل أفعال الله تستحق الحمد، حمدًا يتضرع إلى الله أن يملأ القلب بهذه المشاعر اللائقة بتقديسه.

وأحيانًا كان يقول: "الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفي ولا مكفور". والمعنى هو أن الحمد لله كل الحمد الذي أطعمنا وسقانا، اللهم اجعل قلوبنا دائمًا وأبدًا مشتاقة لحمدك لا تكتفي، ونعوذ بك أن تنكر قلوبنا نعمتك فلا تمتنّ لك.

وكان يُذكّر أصحابه عند الطعام ألا يملأ أحد بطنه بالطعام، وكان يقول إن طعام الواحد يكفي الاثنين. وكان إذا أُعِدّ في بيته طعام خاص أوصَى أن يُهدَى بعضٌ منه للجيران، وكانت عادته أن يهدي الطعام وغيره من الماعون إلى بيوت جيرانه (مسلم، كتاب الأدب والبخاري).

وكان دائمًا يحاول التفرّس في وجوه أصحابه ليتوسّم إن كان أحدهم في حاجة لمعونة ماسّة، وقد روَى أبو هريرة هذه الحادثة: "والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشُدُّ الحجَر على بطني من الجوع، ولقد قعدتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل. ثم مر بي عُمر،

فسألته عن آية من كتاب الله تعالى، ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل. ثم مرّ بي أبو القاسم، فتبسّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي. ثم قال: أبا هرّ! قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الحقْ، ومضى فتبعتُه، فدخل فاستأذن فأذن لي فدخل فوجد لبنًا في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: أبا هرّ، قلت: لبيك رسول الله. قال: الحق إلى أهل الصُفّة فادعهم لي. قال أبو هريرة: وأهل الصُفّة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءني ذلك، فقلت في نفسي: وما هذا اللبن في أهل الصُفّة؟ كنت أحقّ أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوّى بها، فإذا جاءوا أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسَى أن يبلغني من هذا اللبن، و لم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُد. فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، فأخذوا مجالسهم من البيت فقال: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يُروَى، ثم يرد عليَّ القدح. حتى انتهيت إلى الرسول وقد رَوَى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم، ثم قال: أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيتُ أنا وأنت؟ قلت: صدقتَ يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب فقعدتُ فشربتُ. فقال: اشرب، فشربت. فما زال يقول اشرب حتى قلت: لا

والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا. فقال: فأربني، فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة (البخاري، كتاب الرقاق).

ربما كان هدف الرسول من تكرار عرض اللبن على أبي هريرة آخر المجموعة هو أن يعلمه التحمل والصبر على آلام الجوع، وأن يجعل ثقته في الله تعالى، وألا يبالي بظروفه الخاصة مهما كانت صعبة غير مواتية.

وكان ﷺ يأكل دائمًا بيمينه ويشرب بها، ويتوقّف في الشرب ثلاث مرات ليتنفّس خلال شُربه، وربما كان السبب أن الشخص لو شرب الماء دفعة واحدة، لاستوعب منه ما يفيض عن حاجته مما يصيبه بعسر الهضم.

وكان نهجه في الطعام هو أكل كلّ حلال طيب، ولكن بعيدًا عن الأسلوب الذي فيه رائحة النهم، أو فيه حرمان لآخرين من نصيبهم المستحق. وكما سبق القول، فقد كان طعامه بسيطًا، ولكنه لم يكن يرفض طعامًا يهديه إليه إنسان، ولم يكن شديد التوْق إلى أطايب الطعام، وإن كان يفضّل العسل والتمر. أما عن التمر، فقد كان يقول إن هناك شبهًا بين المؤمن وبين النخلة، حيث يُستفاد من الثمر سواء الرطب منه أو الناضج، والسّعف والجريد واللحاء أو الليف، وحتى النوَى داخل الثمرة له فوائد عدة، فلا شيء في هذه الشجرة خال من الفائدة، وهكذا حال المسلم، يجب أن تكون كل حركاته وأفعاله ذات جدوَى، وأن تكون كل مساعيه من أجل خير الإنسانية كلها (البخاري ومسلم).

وكان ﷺ يفضّل الملابس البسيطة، وكانت ملابسه تشمل إزارًا

ورداء أو رداء وسروالاً. وكان يرتدي إزاره أو سراويله بحيث يغطي بدنه دون الكعبين. ولم يُجزْ كشف أي جزء من البدن فوق الركبتين إلا لضرورة قصوَى، كما لم يُجزْ استخدام قماش عليه صور بارزة أو مرسومة لأشخاص، سواء للملابس أو للستائر، خاصة إذا كانت هذه الرسومات كبيرة أو تمثل آلهة أو مما يُعبد من دون الله. ورأى ذات مرة في بيته ستارة عليها صوَر ذات حجم كبير فأمر بإزالتها. ولم يكن على كل حال يرى حرجًا من استخدام قماش عليه رسوم صغيرة أو رسوم لا تُفسر على نحو العبادة والتقديس. ولم يكن يرتدي الحرير ولم يسمح به لرجال المسلمين، ولقد اتخذ خاتمًا بغرض توثيق الرسائل التي يبعث بها إلى حكام وملوك العالم ليدعوهم للإسلام، لكنه أوصَى أن يصنع الخاتم من فضة لا من ذهب، لأنه نهى رجال المسلمين عن لبس الذهب. ومع أنه كان يسمح لنساء المسلمين بارتداء الحرير وحُلي الذهب، غير أنه كان يرى أن الإسراف في ذلك كريه مقيت. وفي إحدى المناسبات دعا إلى الصدَقة لإنقاذ بعض الفقراء، فنَزعت امرأة أساورها من يدها ووضعتها في حجر الرسول ﷺ، فقال لها إنّ من حقّ يدها الأخرى أن تنجو أيضًا من النار، فخلعت المرأة أساورها من اليد الثانية وقدمتها إليه. ولم يحدث أن امتلكت امرأة من نساء بيته حُليًّا ذات قيمة، ولا ملكت امرأة من النساء المسلمات على عهده تلك الحليّ الغالية إلا فيما ندر. وقد استنكر أن يكنِز أحد الذهب والفضة المسبوكة، وذلك حسب تعاليم القرآن المجيد. وكان يرى أن الاكتناز بوجه عام يضر بمصلحة القطاع الفقير من المجتمع، ويؤدّي إلى

انهيار اقتصاد الأمة والوطن، لذلك كان يعتبر أن الاكتناز إثم من الآثام.

واقترح عُمر رضي الله عنه ذات مرة على الرسول ﷺ أن يرتدي حلة ثمينة يستقبل بها سفراء الدول الكبرى في المناسبات الرسمية، فرفض مبيّنًا أن الله تعالى لا يرضَى عن ذلك، وأنه ينبغي له أن يقابل الناس بالملابس التي يرتديها عادة. وجاءته مرة هديّة من قماش حريري فبعث به إلى عُمر، فتساءل عمر كيف يرتديه وقد نهى عن ذلك، فقال له إن الهدية ليست دائمًا للاستعمال الشخصي، ومن الممكن أن تستعمل نساؤه ذلك القماش. (البخاري-كتاب اللباس)

وكان فراشه كذلك بسيطًا. لم يستخدم الأسرَّة أبدًا أو المتّكآت، وكان ينام على حصير مفروش على الأرض، وكان فراشه هذا من جلد أو من نسيج من شعر الإبل. وروَت السيدة عائشة أن هذا الفراش كان ضيقًا، حتى إنها كانت تنام على جانب منه وهي متمددة الأقدام، فإذا قام الرسول ﷺ ليلاً للتهجّد، فهبط للسجود؛ جمعت رجليها، حتى إذا قام ونهض.. مدتها، فإذا سجد انكمشت ثانية وهكذا. (مسلم والترمذي، والبخاري-كتاب الأطعمة)

وقد انتهج نفس البساطة في ترتيبات المسكن، فقد كان منْزله عادة يتكوّن من غرفة واحدة وفناء صغير، وكان هناك حبل معلق يقسم الغرفة إلى نصفين بحيث يعلق ستار من قماش على ذلك الحبل عندما يكون لديه زائر، فينفصل مكان لزوجه عن مكان الحاضرين الآخرين. كانت حياته بسيطة للغاية، وقد روَت السيدة عائشة أن طعامه بوجه

عام طوال حياته معها، كان التمر والماء. وعندما مات ﷺ لم يكن في البيت يومها سوى بضع تمرات قليلة.

العلاقة مع الله ﷻ

لقد سيطر حبه لله تعالى وإخلاصه له على جميع مجالات حياته كلها، ولقد اصطبغت كل مناحي حياته بصبغة هذا الحب وذلك الإخلاص. ولقد كان يصرف الجزء الأكبر من وقته في الليل والنهار يصلي لله، ويسبح بحمده، رغم كل الأعباء الثّقال التي كان يحملها على عاتقه، والمسؤوليات الجسام التي كانت تُطوّق عنقه. وكان يهجر فراشه، ويكرّس نفسه لعبادة الله تعالى حتى يحين وقت الخروج إلى صلاة الفجر. وأحيانًا، كان يقف طويلاً في الصلاة من آخر الليل حتى تتورّم قدماه، وكل من شاهده على هذا الحال تأثّر له كثيرًا. وفي مرة قالت له السيدة عائشة: "يا رسول الله! لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر". فقال لها: "أفلا أكون عبدًا شكورًا" (البخاري- كتاب الجمعة).

ومعنى ذلك أنها كانت تقول له إن الله تعالى شرّفه بقربه، وأكرمه برضاه عنه، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلماذا يجهد نفسه هذا الجهد في الصلاة والعبادة، فيقول لها إن واجبه إزاء ذلك أن يزداد شكرًا، فإن زيادة الشكر تجلب مزيدًا من القُرب.

ولم يكن أبدًا يبدأ عملاً إلا بأمر الله تعالى، ولقد سبق أن ذكرنا في سيرته أنه لم يترك مكة إلا بعد أن تلقّى أمرًا سماويًا بذلك، على الرغم

من خطورة وقسوَة الاضطهاد الذي كان يتعرض له من أهل مكة. ولقد رفض الهجرة مع أصحابه إلى الحبشة حين اشتدّ الاضطهاد عليهم، وأمرهم بالهجرة إليها ولم يستجب لرغبتهم في أن يصحبهم، لأن الله تعالى لم يكن قد أذن له بذلك. وفي الوقت الذي تشتدّ فيه الأزمات والمتاعب، يميل الناس عادة لاستبقاء أصدقائهم وأقربائهم على مقربة منهم، ولكن الرسول ﷺ أمر أصحابه باللجوء للحبشة، بينما بقي هو نفسه خلفهم في مكة بسبب عدم تلقّيه توجيها من الله تعالى بمغادرتها.

كان قلبه يفيض تأثرًا، وتنحدر الدموع من عينيه كلما سمع كلمات الله تُتلى عليه، خاصة حينما تذكر تلك الكلمات مسؤولياته هو ومهامّه النبويّة. ويرْوي عبد الله بن مسعود أن الرسول ﷺ سأله مرة أن يتلو عليه بعض الآيات من القرآن المجيد، فقال عبد الله: "يا رسول الله! كيف أقرؤه عليك وعليك أُنزل؟ (يقصد أن رسول الله هو الأعلم به) ولكنه رد عليه قائلاً: "إني أحب أن أسمعه من غيري". فبدأ عبد الله يتلو من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤٢)، فقال له الرسول ﷺ: "حسبك.. حسبك". فنظر عبد الله بن مسعود إلى الرسول ﷺ ليجد الدموع تنهمر من عينيه (البخاري، كتاب فضائل القرآن).

كان ﷺ شديد الحرص على أداء الصلوات المفروضة، حتى في حالة مرضه الشديد الذي لا يمكنه معه الصلاة إلا في الفراش؛ كان يحرص

على الذهاب إلى المسجد ليؤمّ المصلين بنفسه. وفي مرة لم يستطع القدوم إلى المسجد؛ فأمر أبا بكر ﷺ أن يصلي بالناس، ولكنه حالما أحس ببعض القوة والتحسن في مرضه، طلب أن يسندوه ليَصل المسجد. واتّكأ على كتفي رجلين وهو بالغ الضعف حتى إن قدميه كانتا تجرّان على الأرض، وتصنعان خلفها خطوطًا كما ترْوي السيدة عائشة (البخاري).

إن التصفيق باليدين علامة شائعة للتعبير عن السعادة أو لجذب الانتباه إلى أمر ما، وقد تعَوّد العرب على ذلك أيضًا. ولكن الرسول ﷺ لشدّة حبه لذكر الله، أحلّ الحمد والتسبيح وذكر الله محل التصفيق في مناسبات إظهار السرور أو لفت الانتباه.

في مرة من المرات شغله أمر هام عن حضور الصلاة لأوّل الوقت، فأناب أبا بكر ليؤم المصلين، ولكنه سريعًا ما فرغ من الأمر الذي كان بصدده، ثم بادر لفوره إلى المسجد وأبو بكر قائم يؤمّ الناس، ولكن جمهور المصلين شعر بوصول الرسول ﷺ فبدأوا في التصفيق تعبيرًا عن سرورهم بوجوده، ولتنبيه أبي بكر لوجود شخص الرسول ﷺ بينهم. فعند ذلك تراجع أبو بكر ﷺ عن مقامه، وأفسح المكان للرسول ﷺ ليؤمّ الناس. ولما انتهت الصلاة، سأل أبا بكر: "لماذا تراجعتَ وقد أمرتُك أن تؤمّ الناس"؟ فقال أبو بكر: "ما كان لابن أبي قحافة أن يؤمّ الناس ورسول الله قائم". ثم وجّه الرسول ﷺ كلامه إلى الناس فقال لهم إنه ليس من المستحب أن يصفّقوا في الصلاة، فإذا انتاب أحدهم في الصلاة أمر فليسبحوا اسم الله ويجهروا به بدلاً من التصفيق.

(البخاري)

ولم يكن الرسول ﷺ يقبل أن تكون عبادة الإنسان أو صلاته تعذيبًا لذاته، أو عبئًا ثقيلاً في إحساسه. وفي إحدى المناسبات دخل البيت، فرأى حبلاً ممدودًا بين عمودين، فسأل عنه فقيل إن زوجه زينب تتعلق به إذا نهضت في صلاتها عندما تتعب من طول التهجّد، فأمر بإزالة الحبل وقال إن على المرء أن يؤدّي صلاته طالما كان يشعر بالنشاط، فإذا فتر فليقعد، لأن الصلاة ليست عذابًا للنفس، وأنها تفقد قدرتها على تزكية النفس إذا أدّاها المرء وجسده منهك من التعب (البخاري، كتاب الجمعة).

وكان يمقت كل فعل وكل ممارسة تمتّ بأدنى صلة ولو بعيدة إلى أطياف الوثنية أو آثارها. وعندما اقتربت وفاته وأحس بسكرات الموت، كان يتقلّب من جانب إلى جانب وهو يحذّر من فعل اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم قبور أنبيائهم وأوليائهم مساجد. وكان يقصد أولئك الذين كانوا يخرّون ساجدين عند قبور أنبيائهم وأوليائهم، ويوجّهون الخطاب إليهم في الصلوات ويصلّون لهم. وقصد أن المسلمين لو فعلوا ذلك، وسقطوا في هذه الممارسات، فإنهم بذلك يتبرأون من نبيّهم، بدل أن يستحقوا صلواته عليهم.

ولقد سبق الحديث في السيرة عن غيرته الشديدة على تمجيد الله وشرف ذكره إلى أقصى الحدود. لقد حاول أهل مكة معه بكل وسائل الفتنة والإغراء، والترغيب والترهيب، ليكفّ عن معارضته لعبادة الأصنام (الطبرى). ولقد حاول عمه أبو طالب أن يقنعه ليعدل

عن طريقه، وعبر له عن خوفه من موقف صعب، يجد فيه نفسه مخيرًا بين مرارة عداء قومه، وبين تسليمه لهم متخليًا عن حمايته، إذا أصر على موقفه في شجب الوثنية وتخطئة نهجها. وكان ردّ الرسول ﷺ الوحيد على ذلك هو: "والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه". (الزرقاني)

وفي أُحُد، وعند سفح أحد التلال، بينما يحيط به الجرحى من المسلمين، والعدوّ قد تملّكه الفرح يعبر عن شماتته، وينفّس عنه شعوره بالانتصار على المسلمين بصيحات منكرة، وأبو سفيان قائدهم يصرخ: "أعل هبل، أعل هبل"، في هذا الظرف الدقيق، ورغم ما يهدد سلامته من خطر، ورغم أن العدد الصغير المحيط به من أصحابه ظلوا صامتين، فإنه لم يملك إلا أن يأمرهم بالردّ عليه قائلين: "الله أعلى وأجَلّ" (البخاري).

وكان من العقائد الشائعة عند أتباع الأديان المختلفة قبل الإسلام، أن الآيات الكوْنية في السماء والأرض تساهم في التعبير عن مشاعر الأنبياء والقديسين والصالحين حزنًا وفرحًا، بل إنهم يمكن أن يتحكموا بحركات الأجرام السماوية. وعلى سبيل المثال، فقد رُوي عن بعضهم أنه تسبّب في وقوف الشمس في مسارها، أو أن القمر قد توقّف، أو أن الأنهار قد توقّفت عن الجريان. وقد جاء الإسلام يعلّم الناس أنّ عقيدة كهذه لا أساس لها من الصحة، وأنّ ما جاء من ذلك في الكتب المقدسة السابقة كان أمثلة رمزية، تم تحويلها إلى تصوّر خرافي بدلاً من

تأويلها على معناها الصحيح. ورغم ذلك فقد كان بعض المسلمين يميلون إلى نسبة بعض الظواهر الطبيعية إلى أحداث معيّنة في حياة الأنبياء. ولقد كُسفت الشمس عندما مات إبراهيم ابن الرسول ﷺ في عامه الثالث. فروّج بعض المسلمين في هذا اليوم تلك الفكرة التي تقول إن الشمس أظلمت لموت إبراهيم كنوع من التعزية لمشاعر الرسول الكريم. وعندما بلغ الأمر الرسول ﷺ، عبر عن بليغ استنكاره وضيقه بهذه التصوّرات، فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لحياة أحد ولا لموته". وهكذا شرح لهم وبيّن للناس كيف أن الشمس والقمر وأجرام الكوْن السابحة يحكمها قانون الله تعالى وحده، وأن حركتها والظواهر المرتبطة بها لا تخضعان لموت أحد ولا لحياته (البخاري).

والجزيرة العربية بلد جاف، ولذلك يستقبل أهلها المطر بحفاوَة، وينتظرونه بشغف شديد. وكان العرب قد اعتادوا تخيّل أن الأمطار مرتبطة بحركة النجوم، ولكنّ الرسول ﷺ كان يُظهر الامتعاض البالغ إذا ذُكر أمامه شيء من هذا القبيل، وكان ينصح قومه ألا ينسوا نعمة الله تعالى التي يتفضل بها عليهم، ولا ينسبوها إلى أيّ مصدر آخر غير الله ﷻ. وكان تعليمه هو أن المطر وكل ظواهر الطبيعة خاضعة لنظم الله تعالى وحده، وتأتمر بأمره، ولا تخضع لرغبة أحد أو سُلطته، ولا لحركة أيّ مخلوق آخر من دون الله ﷻ. (مسلم، كتاب الإيمان)

ومهما كان من تراكم الظروف المعاكسة عليه، فقد كانت ثقته في الله لا تهتز إزاء ذلك. حدث ذات يوم أن رآه أحد الأعداء نائمًا، لا

يحرسه أحد. فوقف عند رأسه، والسيف مسلول في يده وهدّد الرسول ﷺ بالقتل لفوره، وقبل أن يهوي بسيفه عليه سأله قائلاً: "من يمنعك مني"؟ فرد الرسول ﷺ في رباطة جأش: "الله". ولقد تفوّه الرسول ﷺ بهذه الكلمة بقوة وجلال ويقين، حتى إنّ قلب العدوّ الكافر لم يتمالك نفسه فأدرك على الفور أن الرجل الذي أمامه شامخ الإيمان والثقة في الله تعالى، ولا يمكن أن يكون كاذبًا. لذلك سقط السيف من يد الرجل، ووقف في هيئة صاغرة كمن ينتظر صدور الحكم عليه، بعد أن كان منذ لحظة يقف عازمًا على قتل الرجل الذي أمامه. (مسلم- كتاب الفضائل، والبخاري-كتاب الجهاد)

وعلى العكس من ذلك كان موقفه ﷺ بالغ التواضع أمام الله تعالى، فكان يقف أمامه بكل خشوع ومذلة. وروَى أبو هريرة أنه سمع الرسول ﷺ يقول إن أحدًا لن يدخل الجنة بعمله، فسأل أبو هريرة: "ولا أنت يا رسول الله"؟ فرد عليه قائلاً: "ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدني الله برحمته". (البخاري كتاب الرقاق).

ولقد ظل دائمًا يحضّ الناس أن يلتزموا في كل أعمالهم بالصراط المستقيم، وأن يبذلوا جهدهم في تحرّي الوسائل التي تقرّبهم من الله تعالى. وكان يعلمهم أن الإنسان لا يصحّ له أن يتمنى الموت، لأنه لو كان يسلك السلوك الحسن فلعله يستزيد منه، وإن كان سيئًا فلعله يتوب ويعود إلى فعل الخيرات. ولقد عبر ﷺ عن حبه لله وإخلاصه له بطرق شتى، فمثلاً.. كان قد طال الجفاف، وطال أيضًا انتظار المطر، فلما بدأت القطرات الأولى تتساقط من السماء، أخرج لسانه يستقبل

به قطرة من هذه القطرات، وهو يعبّر عن سعادته وامتنانه لله تعالى قائلاً ما يعني أن هذه أحدث نعمة تتنَزّل عليه من لدن الله تعالى. وكان دائمًا مشغولاً بدعاء الله ليغفر له ويرحمه، وكان ذلك يحدث كثيرًا خاصة في مجالس أصحابه كي يعلمهم أن يقوا أنفسهم من عذاب الله وأن يستكثروا من فضله. ولم يكن يغادره بتاتًا إحساسه بأنه دائمًا وأبدًا في معيّة الله تعالى، فكان إذا أراد النوم قال: "باسمك اللهم أحيا وباسمك اللهم أموت"، يقصد بذلك أنه يذهب إلى نومه واسم الله تعالى على شفتيه، ويستيقظ واسم الله على شفتيه.

فإذا استيقظ كان يقول: "الحمد لله الذي أحيانًا بعد ما أماتنا وإليه النشور" (البخاري). وكان يتُوق باستمرار لكل ما يقرّبه من ربه. ومن دعائه المتكرر قوله: "اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا" (البخاري). وفي رواية: "واجعلني نورًا".

وروَى ابن عباس أنه قبل موت الرسول ﷺ بقليل، قدِم مسيْلمة الكذّاب على عهد رسول الله فجعل يقول: "إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعتُه". وقدم المدينة في عدد كثير من قومه، إذ كانت قبيلته أكبر القبائل العربية. فأقبل إليه رسول الله ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وكان في يد رسول الله قطعة جريد، حتى وقف على مسيْلمة في أصحابه فقال: "لو سألتني هذه القطعة (الجريد) ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنّك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ

فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت ابن قيس يجيبك عني"، ثم انصرف عنه. قال ابن عباس: "فسألت عن قول رسول الله إنك ترى الذي أريت فيه ما رأيت"؟ فأخبرنى أبو هريرة إن رسول الله قال: "بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأُوحِيَ إليّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأوّلتهما كذابيْن يخرجان بعدي". (البخاري)

كان ذلك في أواخر حياة الرسول ﷺ، ولم تكن أكبر القبائل العربية قد آمنت بعد، وكان شرطها كي تتبعه هو أن يُعيّن زعيمهم خليفة له من بعده.

لم يكن للرسول ﷺ ولد من نسله، ولا قريب طامح يقف أمام رغبة الرسول ﷺ في توحيد الجزيرة العربية كلها إن قبل بهذا العرض. ولو كان ﷺ مدفوعًا بأيّ دافع شخصي، لما وقف شيء ضدّ رغبته في وحدة العرب، بأن يعد فقط رئيس أكبر قبيلة فيها أنه سيكون خليفته. ولكنه لم يكن يرى نفسه متصرفًا في أي شيء في العالم مهما كان صغيرًا، ولم يكن يرى نفسه مالكًا لشيء. لذلك رفض التعامل مع مسيْلمة، ورفض عرضه بكل ازدراء. وكان ينظر إلى قيادة المسلمين لا كهدية يهديها هو إلى من يشاء، بل كأمانة إلهية مقدّسة يهبها الله تعالى لمن يستحقها ويناسبها. لذلك قال لمسيْلمة أن يدع عنه قيادة المسلمين جانبًا، فلن ينال منه ولا حتى قطعة جافة من الجريد.

كان ﷺ إذا تحدث عن الله ﷻ، بدا للناظرين وكأن وجوده كله يذوب في حبّ عميق لله ﷻ، وينبض كيانه كله بنشوَة إخلاص فريد

لله ﷻ.

وكان يرى دائمًا ضرورة أن تكون العبادة بسيطة دون تعقيد. وكانت أرضية مسجده من الرمل والحصباء، ذلك المسجد الذي بناه وصلى فيه أكثر صلواته إمامًا، وكان سقف المسجد من الجريد والسعف الذي كان ينفذ منه ماء المطر إذا هطل. وفي بعض الأيام ابتل الرسول ﷺ وصحبه في الصلاة بالماء، وأصابهم طين الأرض، ولم يمنعه ذلك من إتمام الصلاة للنهاية، ولم يؤجّل أية صلاة، ولم يغلق المكان لحين إتمام الإصلاحات التي تعمل على إحكام السقف ضد عوامل الجو (البخاري، كتاب الصوم).

وكان يراعي أحوال أصحابه مع الله تعالى. كان عبد الله بن عمر رجلاً حريصًا على التقوَى والتطهر، فقال عنه الرسول ﷺ: "نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل". وعندما بلغ ذلك عبد الله، لم يترك قيام الليل بعدها. وحدث مرة أن كان الرسول ﷺ في بيت ابنته فاطمة، فسألها هي وزوجها عليًّا ما إذا كانا يصليان ليلاً، فقال له عليّ: "يا رسول الله! إنما أنفسنا بيد الله فإن شاء بعثها". فتولى عنه الرسول ﷺ وأخذ يضرب ركبته في الطريق ويكرر آية من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾ (الكهف)، بمعنى أن الإنسان يتردّد في الاعتراف بخطئه، ويحاول تحميل أعماله الاختيارية على الله تعالى (البخاري، كتاب الجمعة).

وقصد الرسول بذلك أن عليًّا لا يجوز له أن ينسب إهمال صلاة الليل إلى إرادة الله تعالى، بادّعائه أن الله إذا شاء عدم نهوضه للصلاة

فإنه لفوره يصبح عاجزًا عن التهجّد، ولكن واجب عليّ هو التسليم بضعفه عن أداء الأمر، وعليه أن يواجه نفسه ويلومها.

رفض تعذيب النفس

رفض الرسول ﷺ رفضا باتًّا أن تكون العبادة أمرًا شكليًا، وأدان قيام الشخص بتعذيب نفسه بأيّة صورة، متصوّرًا أنه بذلك التعذيب يعبد الله تعالى ويتقرّب إليه. لقد وهب الله ﷻ الإنسان ملكاته وحواسّه كي يحسن استخدامها وشكرها. ولقد علّم الرسول ﷺ الناس أن العبادة الحقّة تكمن في الانتفاع الأمثل بتلك العين وذلك السمع وهذا الشم وذلكم التذوّق والإحساس. إن الله تعالى وهبنا العين لنرى بها، وإنه لمن الكنود لله أن نغلقها أو أن نقتلعها. وليس شكر نعمة الرؤية هو أن نعتبر الرؤية إثمًا، فالله وهبنا هذه الملكات ليس على أنها إثم نحمله، بل نعمة للتقدّم والرقيّ. وإنه لعقوق من جانب الإنسان أن يحرم نفسه من نعمة وهبها الله له كالسمع مثلاً، كما أنه من العقوق والإثم أيضًا أن يستخدم هذه الحاسّة في الاستماع إلى الأكاذيب والغيْبة. والامتناع عن تناول الطعام، (ما لم يكن صومًا مفروضًا أو عملاً تقتضيه الحكمة)، قد يؤدي إلى قتل النفس، وهو ذنب لا يُغتفر. وكما أن الإضراب التام عن الطعام والشراب إثم وعقوق، فإن من النكران والعقوق كذلك أن نأكل طعامًا محرّمًا أو نشرب ما لا يحل شربه. وهذه قاعدة ذهبية للحياة، أكّدها الرسول ﷺ وشدّد على أهميتها. ولم يقم من قبل نبيّ آخر بغرس هذه القاعدة في التعليم والحياة.

إنّ الاستخدام الصحيح لملكاتنا الطبيعية، وحُسن استعمال الميول الحسّية، هو الذي يؤدّي إلى أن تترسّخ فينا الصفات الأخلاقية العليا. وإنه من الحماقة أن نُبطل عمل هذه الملكات الطبيعيّة التي فطرها الله فينا أو نلغيها، كما أنه من الحمق أيضًا أن نسفّهها بأداء سفيه. إنّ الإثم لا يكمن فيها، بل يكمن في سوء استخدامها، ولذلك فإنّ في حُسن استخدامها فضيلة مؤكّدة وخُلُقًا طيبًا. وهذه هي خلاصة التعاليم الخلقية التي أكّدها الرسول ﷺ وشدّد على أهميتها، وكان عليها مدار حياته وزبدة أفعاله. رُوي عن السيدة عائشة أن الرسول الكريم ﷺ لم يُخيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا أو شُبهة، فإنّه يكون أبعد الناس عنه (مسلم، كتاب الفضائل). وإن ذلك لهو النهج الأعلى والسبيل الأمثل الذي جعله الله تعالى للإنسان.

إن كثيرًا من الناس يحاولون أن يتقرّبوا إلى الله تعالى بالحرمان وتحمّل الآلام تطوّعًا منهم، والله يأبى ذلك. فليس رضا الله في الحرمان والعذاب، والفوز برضا الله لا يأتي عن طريق عذاب عبثي لا هدف منه، وحرمان للذّات لا فائدة منه إلا خداع الناس.

وهناك من البشر ممن ضعفت صفاتهم الخلقية، يحبّون أن يموّهوا بالتغطية على أخطائهم، ويريدون بتأثيرات وهمية أن يبدوا في عيون الآخرين كأنهم من أصحاب الفضائل وذَوي المكانة. أما النبيّ الأكرم ﷺ فكان هدفه هو نوال الفضيلة حقيقة، وبلوغ رضا الله فعلاً، والفوز بقرب الله ﷻ، لذلك كان ﷺ خاليًا تمام الخلوّ من كل تظاهر وادّعاء.

وسواء عليه رأى الناس هذا الشيء حَسنًا أو رأوه سيئًا، فالأمر

المهم عنده كيف يجده هو نفسه، وماذا يحسّ تجاهه من أعماقه، وكيف يحكم الله عليه. فإذا أضيف حكم الناس وتقديرهم إلى رضاه هو عن ضميره ورضا الله وقبوله، فإنه يشكرهم ويمتنّ لهم. ولكن إذا نظروا إليه بعين الإنكار أو الاشمئزاز، فإنه يأسف عليهم ولا يُلقي بالاً إلى رأيهم.

حاله مع أزواجه

كان ﷺ عطوفًا كل العطف وعادلاً كل العدل مع زوجاته، وإذا أخطأت إحداهن في موقف ما ولم تفِ بما عليها من واجب الاحترام تجاهه، فإنه كان يبتسم ويمرّر الأمر. وقال يوما للسيدة عائشة: "إني لأعرف إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبى". قالت: "من أين تعرف ذلك"؟ فقال: "أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا وربّ محمد، وإذا كنت عليّ غضبى قلت: لا وربّ إبراهيم". قالت: "أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك" (البخاري، كتاب النكاح).

كانت السيدة خديجة هي أوّل أزواجه، وقد ضحّت أعظم التضحيات معه، وكانت تكبره سنًّا. وبعد وفاتها تزوّج بنساء أصغر سنًّا، لكنّ ذكراها لم تخفت في قلبه. وعندما كانت تزوره صديقة من صديقات السيدة خديجة، كان ينهض قائمًا ليستقبلها (مسلم). وإذا تصادف ورأى شيئًا يخص السيدة خديجة، كان قلبه ينبض بالعاطفة في الحال، ويفيض وجدانه بالحنين إلى ذكرياته معها. وحدث أن كان زوج ابنته زينب من بين أسرى المسلمين في معركة بدر، ولم يكن

يملك شيئًا يفتدي به نفسه، فبعثت زينب إلى المدينة بقلادة تفتَدي بها زوجها، وكانت القلادة أصلاً لأمّها السيدة خديجة. وعندما رأى الرسول ﷺ القلادة عرفها، وتأثر لرؤيتها، ورقّ قلبه، فاستأذن أصحابه أن يردّوها إليها ويطلقوا لها زوجها، فقبل الصحابة ذلك بسعادة بالغة لما قال لهم إن القلادة كانت هديّة الزفاف من السيدة خديجة إلى ابنتها (السيرة الحلبية ج٢). وكان كثيرًا ما يمدح السيدة خديجة أمام أزواجه الأخريات، ويذكر كم ضحّت في سبيل الإسلام. فغارت السيدة عائشة من ذلك يوما وقالت: "كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة". فتأثر الرسول ﷺ كثيرًا لقولها وقال لها إنها كانت وكانت، وراح يذكر ويعدّد أعمالها ومناقبها (البخاري).

علوّ أخلاقه وسموّها

كان الرسول ﷺ صبورًا دائمًا في المحن، ولم يتراجع أبدًا أمام الظروف الصعبة والابتلاءات، ولم يدع الأهواء الشخصية تستولي عليه. ولقد عرفنا أن أباه قد توفي وهو جنين لم يولد بعد، وتُوفيت أمه صغيرًا ليكفله جدّه حتى الثامنة من عمره. وبعد وفاة هذا الجد بعد ذلك بقليل، كفله عمّه أبو طالب. كان أبو طالب يرعَى الصغير ويعطف عليه، وكان يتسامح معه لسببين أوّلهما العاطفة الطبيعية نحو ابن أخيه، وثانيهما لأن عبد المطلب جدّ الرسول ﷺ كان قد أوصاه به. ولكن زوج أبي طالب لم تكن تحمل للصغير نفس الشعور، ولم تكن تحكمها نفس الاعتبارات. لذلك كان يحدث أحيانًا أن تقسم

شيئًا ما بين صغارها هي، تاركة ابن عمّهم الصغير دون نصيب. فإذا تصادف أن دخل أبو طالب المنْزل في ظرف كهذا، فإنه كان يجد ابن أخيه الصغير جالسًا على جانب، دون أثر للعبوس أو الضيق أو الإحساس بالضّيْم على وجهه، وكأنه تجسيد تام للشعور بالكرامة، فيسرع العم إلى الصغير مدفوعًا بدواعي العاطفة الجائشة وإحساسه ووعيه بالمسئولية فيضمّه إلى صدره صائحًا: "انظروا إلى طفلي هذا أيضًا.. انتبهوا إلى طفلي هذا أيضًا". كان هذا يحدث مرات عديدة، ومن شهدوا هذه الوقائع أجمعوا على أن محمدًا، الصبيّ والشاب، لم يبد مرة واحدة أية بادرة تدل على أنه قد تأثر بهذه التفرقة، أو أنه كان لديه أيّ شعور بالغيرة من أبناء عمه. ومضت الحياة، وجاء الزمن الذي كان يمكنه أن يفعل شيئًا من نوع الثأر، لو كان قد ترسّب في نفسه شعور مخزون عن ذلك. لكن الذي حدث أنه أخذ على عاتقه كفالة وتربية اثنين في بيته من أبناء عمه هذا، وهما عليّ وجعفر. ولقد تحمل المسئولية على أعلى مستوى ممكن.

لقي الرسول الكريم ﷺ خلال حياته تجارب متوالية كانت أشد وقعًا من ذلك، فقد وُلد يتيمًا، وماتت أمه وهو طفل صغير، وفقد جده وهو في الثامنة من عمره، وبعد زواجه عانى ثكل عدة أبناء واحدًا بعد الآخر. وبعد ذلك فقد زوجته الحبيبة وقرينته المخلصة السيدة خديجة. ولقد ماتت عدّة أزواج له ممن تزوجهن بعد السيدة خديجة. وعند قرب وفاته تحمل آلام الحزن على فقد ابنه الصغير إبراهيم. لقد تحمّل جميع هذه المصائب برضًى وسكينة، ولم تتأثر رقّته

ودماثته ولا عزيمته بتوالي المحن عليه.

ولم يُنفّس أبدًا عن أحزانه الخاصّة جهْرة على الملأ، وكان يلقَى كل إنسان بوجه بشوش عذب. وعامل الجميع على السواء بنفس الإحساس ولطف المعشر. وفي مرة رأى امرأة تبكي على قبر ابنها الفقيد بلوْعة، وتصرخ متألمة، فنصحها بالصبر وقبول إرادة الله. ولم تكن المرأة تعرف أنّ محدثها هو الرسول الكريم ﷺ، فردّت عليه قائلة: "إليك عني فإنك لم تُصب بمثل مصيبتي". ثم قالت له المرأة لو أنه فقد ابنه مثلها لعرف مدى صعوبة الصبر على تلك المصيبة، فأخبرها أنه فقد سبعة من أبنائه لا واحدًا فقط، واستمر في طريقه. ولم يكن يفكر كثيرًا فيما أصابه من مصائب، إلا إذا أرجعته حادثة كهذه ليذكرها، ولكنه لم يتركها تحول دون أداء مهمته في خدمة الإنسانية التي أرسله الله تعالى من أجلها، ولا في القيام بما كلّفه به سبحانه من حمل أعباء الناس، ومشاركتهم أحمالهم وأثقالهم وآلامهم بكل رضًا وسرور.

ضبط النفس

لقد كان ﷺ في حالة دائمة من السيطرة على النفس، وكان يعرف كيف يتحكّم تمامًا في مشاعره، خاصة عندما يخطئ الآخرون في أسلوب تعاملهم معه. وحتى عندما أصبح حاكمًا، كان يستمع لكل شخص في صبر وأناة. وعندما يعامله شخص بوقاحة، كان يتحمله ولم يحاول أبدًا الانتقام لشخصه. ومن المعروف لدى العرب أنهم عندما يخاطبون إنسانًا ويظهرون له الاحترام، فإنهم لا ينادونه باسمه

المجرّد. وقد اعتاد المسلمون خطاب الرسول بقولهم "يا رسول الله"، ولم يتعوّد أيّ من المسلمين أن يناديه بأبي القاسم (القاسم اسم أحد أبنائه). وفي أحد الأيام، جاءه يهودي في المدينة وأخذ يحاوره، وخلال المحاورة كان يناديه باسمه المجرّد: يا محمد، يا محمد. ولم يعر الرسول ﷺ اهتمامًا لأسلوب خطابه، واستمر في شرحه لموضوع الحوار صابرًا. فغضب أصحاب الرسول ﷺ لجفاء الخطاب من هذا المتحدّث، حتى إنّ أحدهم لم يتمالك نفسه فقال لليهودي ناصحًا إياه أن يخاطب الرسول ﷺ بكنيته "أبا القاسم" لا باسمه المجرّد. فقال اليهودي إنه يناديه بالاسم الذي سماه به أبواه. فتبسّم الرسول ﷺ وقال: "لقد صدق، لقد سميت محمدًا عندما وُلدت، ولا ضير عليه أن يناديني باسمي". وأحيانًا كان الناس يستوْقفونه في الطريق، وينخرطون معه في حديث، ويشرحون له حاجتهم، ويقدّمون له مطالبهم، فكان دائمًا يقف معهم صابرًا حتى ينتهي صاحب الحاجة ويمضي، وبعد ذلك يتحرك هو. وأحيانًا كانوا يلقونه فيصافحه أحدهم، ويحتفظ بيد الرسول ﷺ في يده لبعض الوقت، فلم يكن يسحب يده من يد مصافحه أولاً، مع أنه كان يجد في هذا مضيعة لبعض الوقت، وتصرّفًا غير ملائم.

وكان الناس يذهبون إليه دون صعوبة، ويضعون أمامه مشاكلهم ومعاناتهم ويطلبون معونته، فإن كان يستطيع المساعدة فلا يتردّد في تقديمها. وأحيانًا كانوا يلاحقونه بالمطالب المتطرّفة ويضغطون عليه بها، فيستمر في الاستجابة لهم طالما كان قادرًا على التلبية. وأحيانًا بعد

تلبية المطلب كان ينصح السائل أن يثق في الله أكثر وألا يسأل الناس. ومرة سأله أحد المسلمين المخلصين عدة مرات، فكان يعطيه في كل مرة، وفي النهاية قال له إن الأجمل للمسلم أن يضع ثقته في الله تعالى وألا يسأل الناس شيئًا. وكان هذا الشخص وفيًّا لهذه النصيحة، فلم يردّ للرسول ما أعطاه رعاية لمشاعره، لكنه قرر في الحال أنه لن يسأل أحدًا بعد اليوم شيئًا مهما كانت الظروف. وبعد سنوات كان هذا المسلم مشتركًا في معركة من المعارك راكبًا على فرس، فسقط منه سَوطه في معمعة القتال والضجيج الثائر، بينما كان اشتباك السيوف واختلاط الرماح في قمته، فانحنى أحد المسلمين من الجند المشاة على السوْط ليلتقطه له، فرفض ذلك المسلم الفارس، وهبط عن حصانه والتقط سَوطه بيده بنفسه. ولما رأى المسلم الماشي ذلك تعجّب، فشرح له كيف أنه منذ وعد رسول الله ألا يسأل أحدًا شيئًا فإنه يفي بذلك، ولو أنه سأله أن يناوله سوطه فإنه يخشى أن يكون بذلك قد نقض هذا الوعد.

العدالة ونزاهة التعامل

كانت المحاباة شائعة في العرب، وكانوا يطبّقون معايير عدة في التعامل مع الأشخاص، وحتى في يومنا هذا نرى أنهم في بعض الأمم المتحضرة يحجمون عن محاسبة المشاهير وأصحاب المناصب الرفيعة على أعمالهم، بينما يُطبق القانون بكل صرامة ضد الشخص المواطن العادي. لكن الرسول ﷺ كان فريدًا في معاملة الجميع بعدالة ونزاهة

متساوية. ومرة جيء بقضية اتهمت فيها امرأة بالسرقة، وكانت المتهمة من عائلة ذات مكانة وشأن، وقد ثبتت عليها التهمة. ولقد أحدث هذا الأمر فزعًا كبيرًا، إذ لو طُبقت عليها عقوبة السارق، فإن العار والمهانة ستلحق القبيلة بأسرها من جرّاء ذلك. وقد أراد الكثير من الناس أن يطلبوا من الرسول ﷺ الشفاعة فيها، ولكنهم كانوا يخشون من هذه الوساطة. وفي النهاية أخذ أسامة ابن زيد على عاتقه هذه المهمة، وذهب إلى الرسول ﷺ، وما إن شعر بالأمر حتى تغير وجهه وقال: "حسبك، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم القوي تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها" (البخاري، كتاب الحدود). ولقد رُوي أن العباس، عمّ رسول الله، كان قد أُسر في بدر، وتم ربطه بحبل شأنه شأن بقية الأسرى لمنعه من الهرب، وكان الحبل مشدودًا على العباس بقوة حتى إنه كان يئن ليلاً، وسمع الرسول ﷺ أنينه ولم يستطع النوم. فشعر بذلك أصحابه، وأرخوا الحبل قليلاً عن العباس، وعندما علم الرسول ﷺ بذلك طلب منهم الاختيار بين إرخاء الحبل عن الجميع أو إعادة شدّ رباط عمه العباس، وأمرهم بالعدل في معاملة جميع الأسرى. عند ذلك قام الصحابة من جهتهم بإرخاء رباط الجميع وتشديد الحراسة عليهم (الزرقاني ج٣).

وحتى في ظروف الحرب وما تقتضيه من ضرورات قاهرة، كان ﷺ شديد الاهتمام بمراعاة القواعد السليمة واحترام المعاهدات والأعراف المعتمدة. وقام مرة بإيفاد جماعة من أصحابه في حملة استطلاعية

فواجهوا بعضًا من رجال العدوّ في آخر يوم من شهر رجب، أحد الأشهر الحرُم، وظنّوا أن من الخطورة عليهم أن يدعوهم يفلتون ليحملوا إلى مكة خبر هذه الجماعة الاستطلاعية القريبة منهم فهاجموهم. وأثناء القتال قُتل أحد أفراد العدوّ، وعندما رجع هذا الوَفد الاستطلاعي إلى المدينة، راح أهل مكة يعترضون على ما حدث قائلين إنّ المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقتلوا رجلاً منهم.

كان أهل مكة ينتهكون حرمة الأشهر الحرُم ضد المسلمين متى كان ذلك ملائمًا لهم حسب هواهم، وكان من الممكن الردّ على اعتراضهم ردًا مناسبًا بالقول إنهم أيضًا ينتهكون حُرمة الأشهر الحرم، فلا يحقّ لهم أن يطالبوا المسلمين أن يلتزموا بذلك. ولكنّ الرسول ﷺ لم يكن ليستعمل مثل هذا الرد. لقد ألقى باللائمة على أفراد الحملة بشدة، ورفض قبول الغنائم التي غنموها بل إنه قد أدّى دية القتيل كما جاء في إحدى الروايات، حتى نزلت الآيات من عند الله تعالى، فأوضحت الأمر برمّته (البقرة: ٢١٨).

ويحافظ الناس عمومًا على مشاعر أصدقائهم وأقاربهم فلا يجرحونها. ولكن الرسول ﷺ كان يشدّد على مراعاة هذا الأمر باعتباره حقًّا للجميع، حتى بالنسبة للذين يقفون منه موقف المعارضة. وحدث مرة أن جاءه يهودي وشكا إليه أنّ أبا بكر قد أساء إلى مشاعره حين قال له إنّ محمدًا أعظم من موسى. فاستدعى الرسول ﷺ أبا بكر وسأله عما حدث، فقال له إنّ اليهودي هو الذي بدأ فقال حالفًا: "لا والذي فضّل موسى على البشر". فردّ عليه أبو بكر بقوله:

"لا والذي فضّل محمدًا على البشر". فقال الرسول ﷺ بأنه ينبغي للمسلمين ألا يفعلوا ذلك رعاية لمشاعر الآخرين، وأمر ألا يفضّله المسلمون على موسى عليه السلام (البخاري، كتاب التوحيد).

ولا يعني هذا أن محمدًا ﷺ، ذلك الرسول الكريم العظيم، لا يتسنّم مكانة عند الله أعلى من موسى عليه السلام، ولكنه قصد أن تصريحًا كهذا يطلقه المسلم في وجه يهودي جدير أن يجرح مشاعره، وهذا شيء يجب تجنبه تمامًا.

احترام الفقراء

كان الرسول ﷺ يعمل دائمًا على تحسين أحوال الفقراء في المجتمع، كما كان يهتم برفع مكانتهم في المجتمع الإنساني. كان رسول الله يومًا في أصحابه جالسين معه، فمرّ عليهم رجل من الأثرياء، فسأل رسول الله أصحابه: "ما تقولون فيه"؟ فردّوا عليه قائلين: "هذا حريّ إن قال أن يُسمع له، وإن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن تُقبل شفاعته".

وبعد قليل مرّ رجل آخر، وكان فقيرًا معدمًا، فسألهم الرسول ﷺ عنه كالأول. فردّوا عليه قائلين: "هذا حريّ إن قال ألا يُسمع له، وإن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُقبل منه". وكانت المفاجأة في ردّ الرسول ﷺ عليهم فقال: "إن هذا الفقير خير من ملء الأرض مثل الغني" (البخاري، كتاب الرقاق).

وكانت امرأة مسلمة فقيرة تقصد مسجد الرسول ﷺ في المدينة فترفع منه القمامة. ومرت بضعة أيام لم يرها الرسول ﷺ فيها، فسأل

عنها مهتمًا، فأخبروه أنها ماتت. فقال: "أفلا كنتم آذنتموني بها، دلوني على قبرها، (وكان يقصد بذلك لومهم على تصوّرهم أنها لا تستحق التقدير لفقرها). فدلوه، فأتى قبرها فصلى عليها صلاة الجنازة. وكان يقول: "رُبّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه لـــه، لو أقسم على الله لأبرّه." (كنـــز العمال، الإكمال من الخمول رقم الحديث: ٥٩٥٣)

وفي مرة كان بعض أصحابه جالسين معًا، ممن كانوا قبـــل ذلـــك عبيدًا وتحرروا، فمر بهم أبو سفيان الذي كان قائدًا عظيمًـــا، وظـــل يقاتل المسلمين حتى فتْح مكة ثم أسلم حينئذ. وهنا أخذت المجموعـــة تُذكّره بالنصر الذي وهبه الله للإسلام وهزيمة المعارضـــة المســـلحة، فسمع أبو بكر ﷺ ذلك فلم يرض عن قولهم، ووبّخ المجموعة قـــائلاً: "أتقولون هذا لسيد قريش؟" ثم ذهب إلى الرســـول ﷺ وروَى لـــــه القصة، فقال له: "يا أبا بكر! لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربّك". فعاد إليهم أبو بكر لتوّه وأخذ يسترضيهم قائلاً: "يا إخـــواني، هـــل أغضبتكم"؟ وظل يناشدهم حتى قالوا له إنهم لم يشعروا بأية إساءة مما قال، ودعُوا الله تعالى أن يغفر لـــه (مسلم-كتاب الفضائل).

وبينما كان الرسول ﷺ يحثّ على احترام الفقير، وعـــدم جـــرح إحساس المسكين، وبذل كل جهد لقضاء حاجتهم، والحـــضّ علـــى إطعامهم، فإنه في نفس الوقت كان يطلب منهم الإحســـاس التـــام بالعزّة، وعلّمهم أن يتجنبوا السؤال. وكان يقول: "إن المسكين لـــيس هو الذي تردّه التمرة ولا التمرتان، أو اللقمة واللقمتان، ولكن الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن لـــه فيتصدق عليـــه" (البخـــاري، كتـــاب

الزكاة). وكان يقول: "إن الله تعالى يبارك الوليمة عندما يُدعى إليها المسكين". وروَت السيدة عائشة أنّ امرأة مسكينة زارتها ومعها ابنتان لها صغيرتان، و لم تكن السيدة عائشة آنئذ تملك غير تمرة واحدة فأعطت المرأة التمرة، فقسمت المرأة التمرة بين ابنتيها وانصرفت. وجاء الرسول ﷺ البيت فقصّت عليه السيدة عائشة القصّة، فقال لها: "من رزقه الله من هؤلاء البنات شيئًا فربّاهن وأدّبهن كنّ له سترًا من النار، وأخبرها أن الله تعالى قد وهب الجنة لهذه المرأة لعطفها على ابنتيها". (مسلم)

وسمع يومًا أنّ أحد أصحابه الأغنياء يتفاخر بثروَته على آخرين، فراح يعلمهم ألا يظن أحد أن الثروَة والمكانة والقوّة تأتي من جهد الشخص الخاص، ولكن ليعلموا أنّ هذه الثلاثة تُكتسب من خلال هؤلاء الفقراء.

وكان من دعائه ﷺ: "اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين" (الترمذي، كتاب الزهد).

وفى أثناء مروره في الطريق مرة، وكان الجو حارًا، لاحظ أحد المسلمين يحمل حملاً ثقيلاً من مكان إلى آخر، وكان الرجل فقيرًا جدًّا، شديد البساطة يكسوه العرق والتراب، وتزيده الكآبة البادية على وجهه بؤسًا. فلم يتأفف منه الرسول ﷺ، واقترب منه يداعبه، فوقف خلفه ووضع يديه على عيني الرجل ليخمّن من هو؟ وتحسّس الرجل بطرف يده الخالية وجه الرسول ﷺ من خلفه وأدرك أنه هو، ولعل ما ساعده على معرفة الرسول ﷺ أنه لم يكن يظن أنّ أحدًا يقبل

إظهار هذا التعاطف مع رجل في مثل هيئته المزرية إلا الرسول الكريم ﷺ، وتشجّع فانضوى في صدر الرسول ﷺ، ولعله كان يريد أن يعرف إلى أي مدى يمكنه أن ينال عطف الرسول ﷺ. وابتسم ﷺ ولم يزجره، بل قال له مداعبًا: "لديّ عبد فهل يريد أحدٌ أن يشتريه"؟ وأدرك الرجل أنه المراد من الدعابة، فقال إنه لا يرى أحدًا يقبل أن يشتري من هو مثله. فطمأنه الرسول ﷺ وأخبره بأن له عند الله تعالى قيمة عظيمة. (شرح السنة)

ولم يقتصر ﷺ على مراعاة الفقراء دَومًا بنفسه، بل كان أيضًا يحثّ الآخرين دائمًا أن يفعلوا ذات الشيء. وروَى أبو موسى الأشعري أن الرسول ﷺ كان إذا جاءه سائل التفت إلى من حوله يطلب منهم مساعدته والاشتراك في فضل العمل الصالح وإشاعته في الناس (البخاري ومسلم)، وهدفه من ذلك أن يغرس في نفوس أصحابه مشاعر اللهفة إلى مساعدة الفقير، ومن ناحية أخرى يضع في وجدان المحتاج إحساسًا مؤكدًا بالعطف والتعاطف الذي يحمله تجاههم إخوانه الموسرون.

صيانة مكاسب الفقراء

عندما تحقق نصر الإسلام وبدأ قبوله على نطاق واسع في جزيرة العرب، تلقّى الرسول ﷺ عندئذ مبالغ كبيرة من الأموال، فقام بتوزيعها على الفور بين المحتاجين إليها. وجاءته ابنته فاطمة ذات مرة، وأرته راحتي يديها وقد تصلبتا وغلظ جلدهما بسبب الرّحَى التي تطحن بها الحب، وسألته أن يكون لها عبد يعينها على هذا العمل،

فأجابها الرسول: "ألا أدلك على خير لك من عبد، إذا ذهبت إلى فراشك فسبّحي الله ثلاثًا وثلاثين، واحمديه ثلاثًا وثلاثين، وكبريه ثلاثًا وثلاثين، فإن فعلت فإنه خير لك من عبد" (البخاري).

وفى إحدى المرّات كان يوزع بعض المال، وحدث أن سقطت من يده قطعة نقد وتدحرجت حتى غابت عن بصره أثناء عدّ المال. وانتهى التوزيع، وذهب الرسول ﷺ إلى الصلاة فأمّ الناس. وكان من عادته أن يمكث بعد الصلاة قليلاً مشغولاً بحمد الله وتسبيحه، ثم يردّ بعدها على أسئلة الناس أو يجيب مطالبهم. ولكنه هذه المرة سارع بعد الصلاة مباشرة وعاد إلى البيت حالما تذكر أمر القطعة النقدية الساقطة، وبحث عنها ليدفعها إلى محتاج؛ لقد خشي أنه إن لم يفعل فقد يقف أمام الله ليسأله عن ذلك، فكان هذا سبب تركه المسجد مسرعًا ليجد القطعة النقدية (البخاري). ولم يدّخر وسعًا في بحثه الدائب عن وسيلة لحفظ مكاسب الفقراء والمحتاجين، حتى لقد أعلن أن آله لا تجوز عليهم الصدقة، ولا يأكلون الصدقات، خشية أن يندفع المسلمون بصدقاتهم على آل محمد لشدة حبهم وإخلاصهم له، فيجوروا على حقّ الفقراء والمحتاجين الذي أوجبه الله في الصدقات.

ومرة جاءه رجل بكمية من تمر وعرضها عليه على أنها صدقة، وجاء حفيده الإمام الحسن، وكان عمره عامان فقط، فالتقط منها واحدة ورفعها إلى فمه، فوضع الرسول ﷺ أصابعه لفوره في فم الطفل وأخرج التمرة منه وهو يقول: "كخ كخ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة" (البخاري).